الباب الأول

الرجل

« أقبلوا أيها الفيلق المبارك ، يا شباب الأيام
التى لم ينفرط عنها عقد الزمان بعد ، أقبلوا
كالفجر الطالع واملأوا آفاق الورى بالنور »
لتر يه

أقبل السيد فى تؤدة ورزانة ، طويل القامة ، معتدل السمت عظيم الهامة ، حسن الطلعة واللحية ، تعلوه سمرة، فى وجهه أثر من السجود ، لا يلتفت إذا مشى بمنة أو يسرة ، يضوع المسك من أردانه على القرب وعلى البعد حتى ليشيع الأرج إذا خرج من داره ، فتعرف أنه القادم إليك قبل أن تراه .

فإذا طالعك ودنا منك رأيت رجلا لباسًا عليه بزة فاخرة تباهى بذوق صاحبها فى قماشها وطرازها ، كأن قمّاشًا تخير لنفسه أحسن ما لديه ، فاجتمع ذوق المشترى وذوق البائع على ذلك الوجه المشرق ، تعلوه قلنسوة طويلة سوداء ، رداؤه وقميصه بأربعمائة درهم ، فى زمن كانت فيه ثمانية أرطال سمن بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم ، والعسل عشرة أرطال بدرهم ، ولحم الغنم ستون رطلا بدرهم ، ولحم البقر تسعون رطلا بدرهم . بل الكبش بدرهم . . !

ومن جبة سنجاب إلى جبة ثعلب يصلى فيها ، إلى جبة فنك (نوع من جراء الثعلب التركى) فى زمن لم يك يلبس الفنك فيه إلا الأقيال والدهاقين والسروات ، إذا ألفيت فيه أو فيما قبله رجلا يلبس رداء يألف فهو ابن عباس أو من على شاكلة ابن عباس : ابن عم النبى ، ونائب أمير المؤمنين علىّ ، والجد الأعلى لهارون الرشيد .

هذا السيد الذى ينم مظهره عن المقام الرفيع ، ينبئك مخبره عن مقام فى قمة الملأ الأعلى من المخلصين ، مجلس هو الوقار بعينه ، وفؤاد جسور هو الشجاعة فى عنفوانها ، وجنان ثابت لا يطيش لدى القارعة . إذا سمع اللغو أعرض عنه ، هيوبًا لا يتكلم إلا جوابًا ، حتى إذا دعت إلى الحديث دواعيه افترت شفتاه عن ثنيتين ناتئتين ثم انبثق النبع سلسلا من سلسل ، كأن ملكًا من الملائكة يوحى إليه ! مضرب المثل فى وفائه ونداه ، وبسطه وإيناسه . وحدبه على أعدائه وأوليائه . لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله فما عند الله خير من البيع والتجارة : رزقه ربه رزقًا حسنًا فجعله كله زلفى لله وقربى ، فثبت الله فؤاده واستخلصه لنفسه ، فجعله للناس آية فى الدنيا وفى الدين .

فمن ذلك الذى هو كل ذلك . . ؟

إنه النعمان بن ثابت المكنى بأبى حنيفة . الذى يتبين عقله من منطقه ومشيته ، حديث العراق كله والشام والحجاز ومصر . تتردد عباراته إلى جوار أساطين المسجد الجامع فى الكوفة ، فتتردد أصداؤها فى المسجد الحرام بالمدينة ، وفى المسجد الأقصى ببيت المقدس ، وفى البيت الحرام بمكة ، وفى جامع عمرو بالفسطاط . يعرف العامة عنه أنه رجل عظيم يصنع العظائم ولا يصطنعه الخلفاء ولا الأمراء ، فإذا ذهب إلى المسجد انجفل الحضور إليه يلتمسون وقع الدر من فيه . يطالعهم كل آن بجلائل العلم الذى ينحنى له الأفذاذ من العلماء . ولو أتيح للناس أن يروا ما أراه الله للأجيال من بعدهم لشهدوا رجلا — بعد رسول الله وبضعة من صحبه — هو أخلد الرجال فى تاريخ الإسلام بما مكن للشريعة السمحة من أسباب التعميم والانتشار ، فظلت كما أنزلها الله عصرية فى كل عصر ومصر . وغدا الدستور الشرعى فى أحدث الأمم الإسلامية حضارة ينحصل فى كلمة يسيرة المبنى كبيرة المعنى هى : « أرجح الأقوال من مذهب أبى حنيفة » ، الرجل الذى أعلن الحرية فى كل مكان وفى كل زمان ، فى الماضى والحاضر والمستقبل ، فى التجارة وفى الملك ، وفى التصرفات وفى حقوق النساء ، وفى حقوق الرعية . حرية وتسامح فى كل شىء يسموان باسمه فى معارج الخلود . يقاوم صاحبهما طغيان الشرطى وطغيان الأمير وطغيان الخليفة وطغيان التقاليد وطغيان التعصب . ولا تنال منه الهزاهز ولا الفتن وينشىء مدرسة الرأى فى الإسلام لتكون أم الفقه الإسلامى ومنبعه على مر الدهور .

* * *

كان فتى طوالا فيه سمرة منحدرة إليه من وسط آسيا من أصلاب أجداده فى الأفغان — فلقد ولد فى سنة ٨٠ للهجرة وكان أبوه وجده من موالى بنى تيم . فهو باسمه سمى ملك من الملوك فى العراق «النعمان بن المنذر» وهو بمولده مولى من الموالى ، لم يتلق العلم فى مدرسة ولا جامعة ، وإنما دخل المسجد الجامع ، وتخرج فى مدرسة الدنيا .

وكانت الدنيا فى ذلك الزمان والمكان أحفل ما تكون بالرجال والأعمال . كان بنو أمية فى قمة المجد فى حكم عبد الملك بن مروان وكانت الكوفة كأتون مستعر ، وكان أمير العراق فى طفولة النعمان الحجاج بن يوسف الثقفى ، رجلا ما يزال اسمه

يجرى فى التاريخ العربى بما يجرى به اسم نيرون فى التاريخ الغربى. فالنعمان لم يسلخ فى بواكير حياته ليلة واحدة ولانهاراً دون أن تصطك مسامعه بأحاديث هذا الطاغوت الناشبة براثنه فى أعناق جيرته وعشيرته . يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم فى العراق عامة والكوفة خاصة — وحمل الطاغية فى عنقه دم العلماء فيما حمل من دماء الشهداء فلم يتردد أن يقتل شهيداً فى سنة ٩٥ « مات . . ما على ظهر الأرض رجل إلا ويحتاج إلى علمه » هو سعيد بن جبير . ومن بعد ذلك بعام فى سنة ٩٦ مات أستاذ العراق إبراهيم النخعى مختفياً عن عيونه . . . !

ولما يفع الفتى الموهوب كان الحجاج جبار الأرض قد قبضه إليه جبار السماء . فرحل إلى الدار الآخرة مخلفاً فى الدار الفانية أحاديث مآسيه .

لاحت على الحدث الناشئ مخائل النجابة وتعارفها الناس حتى بلغ حديثها قاضى الكوفة وزعيم محدثيها فى عصره الإمام الشعبى . فلما مر به يوماً دعاه قائلا : إلى من تختلف ! ؟ قال : « أختلف إلى السوق » وسمى له أستاذه فى السوق . قال الشعبى « لم أعن الاختلاف إلى السوق بل عنيت الاختلاف إلى العلماء » قال : « إنى قليل. الاختلاف إليهم » قال الشعبى : « عليك بالنظر فى العلم ، ومجالسة العلماء ، فإنى أرى فيك يقظة وحركة » .

ووقع فى قلبه من قوله وترك الاختلاف إلى السوق وأخذ فى العلم منذ حداثته الباكرة.

بدأ النعمان يدرس علم الكلام وهو علم التوحيد والجدال فى العقائد والأمور الدينية كافة . كالأنبياء وما يجب أن يكونوا عليه ، والجبر والاختيار ، وإن شئت فقل إنه علم التشريح الفكرى للمسائل المسلمة لإنكارها أو إقرارها بالدليل العقلى .

وكان العراق إقليماً مستوفزاً يدفع كل شىء فيه إلى شبوب الخواطر . وفى الطبيعة البشرية اتجاه غريزى للدفاع عن النفس يدفعها إلى الثورة على العسف ، مواجهة إن استطاعت ، ومن حواليه إذا هى لم تستطع ، فتفرغ شحنتها من الحماسة فى اتجاهات يظهر بادى الرأى أنها لا تمت بسبب إلى الحرب المشبوبة على الطغيان ، لكنها فى الواقع كفروع النهر ، تتلاقى حيث المجرى العريض يحمل الفكرة الثائرة كما يحمل الزورق التيار .

ولقد يظهر من ذلك أن الإقبال على الجدال إنما هو فى الواقع إقبال على النضال . إقبال المفكر بطبيعته ، المتزن بفطرته ، لم تمسه همزات الفتن ولم يغض فى الخلافات العصبية أو المذهبية ولم يقارف الزلفى بأن يقارب السلطان ، وإنما نزل إلى معارك العلم واستقام على طريقته طيلة حياته فى بلد كانت السياسة فيه هى الخبز اليومى يطعمه كل كوفى .

وسنرى من بعد أثر هذا التعليم الأول حين راح فى كهولته يصدع برأيه فى شجاعة دونها شجاعة السيوف .

قالوا رأى النعمان فى حداثته من الصحابة ثمانية رجال وامرأة . وقيل خمسة وامرأة وقيل خمسة وامرأتين — منهم أنس بن مالك — وإنه سمع منه حديث : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وحديث : « الدال على الخير كفاعله » وحديث « إن الله تعالى يحب إغاثة اللهفان » . وقالوا إنه لم يسمع من الصحابة أحداً ، وإنما تمحضت حداثته لدراسة « الكلام » .

لم يدع فيض الفتوة النعمان على حاله بل دفعه إلى الأسفار فى سبيل العلم ، فكان يرحل بين البصرة والكوفة حتى بلغ فى « الكلام » مبلغاً يشار إليه فيه بالبنان أو كما قال : « كنت أعطيت جدلا فى الكلام ، وأصحاب الأهواء فى البصرة كثير ، فدخلتها نيفاً وعشرين مرة وربما أقمت بها سنة أو أكثر أو أقل ظناً أن علم الكلام أجل العلوم » . لكن ما ركب فيه من عقل عملى كان حقيقاً أن يغير مجراه وأن يهديه إلى طريقته المثلى . وللمتجادلين أغلوطات تتجافى مع القصد والنصفة ، وخليق بمثله أن ينصرف إلى ما ينفع الناس فيهجر المتكلمين إلى الفقهاء أو كما قال : « فلما مضى مدة من عمرى تفكرت وقلت السلف كانوا أعلم بالحقائق ولم ينتصبوا مجادلين . وخاضوا فى علم الشريعة ورغبوا فيه وعلموا وتعلموا وتناظروا عليه فتركت الكلام واشتغلت بالفقه ورأيت المشتغلين بالكلام ليس سيماهم سيماء الصالحين قاسية قلوبهم غليظة أفئدتهم . . » .

كان فتى ذواقة يختار من كل شىء أحسنه . وما دام قد تخير الدرس فقد كان عليه أن يختار المدرس . وليس إذن إلا الحلقة المجاورة لأنها أكبر الحلق ، وأستاذها أكبر الأساتذة : أبو إسماعيل حماد بن سليمان العكلى الكوفى الأشعرى الذى يعقد جلساته فى المسجد الجامع .

قال له حماد أن رآه : « ما جاء بك ؟ » قال : « تعلم العلم » قال : « تعلم كل يوم ثلاث مسائل » .

وانخرط فى سلك التلاميذ ، يحفظ مسائله ، ويعيدها فى الغداة فيخطئ الحفاظ ويصيب هو ، ويسكت التلاميذ ويسأل هو . ويلح فى الجدل حتى ليحمر وجه حماد . لكن حماداً يدرك مواهب تلميذه من عمق أسئلته ومن صلته بالله . قام يوماً من مجلسه فقال حماد لجاره : « هذا على ما ترى منه ، يقوم الليل كله ويحييه . . » .

وقال أبو حنيفة عن نفسه فيما بعد : « كنت أكثر السؤال فربما تبرم منى . ويقول يا أبا حنيفة قد انتفخ جنبي وضاق صدرى » .

لم يلبث إلا قليلا حتى أحس حماد أنه يزحم الحلقة كلها بوجوده ، فأمر بأن يجلس بإزائه . وطفقا يجلسان لنفسيهما هذه الجلسة عشر سنوات متتابعات والتلاميذ عاكفون بالمسجد وأبو حنيفة أمثلهم طريقة ، يحظى من الشيخ بكفل زاخر من الرعاية ، فنضجت مداركه وعلا اسمه وتوثقت بينهما العرى حتى إن ابن حماد ليسأل أباه بعد غيبة طويلة عن الكوفة إلى أى الأشياء كان أشوق ؟ وكان للسائل طفل وليد فتوقع أن يكون أقرب الناس إلى قلب الجد هو الحفيد . لكنه أجابه : إلى أبى حنيفة ولو أمكننى ألا أرفع الطرف عنه لفعلت .

وحدثت التلميذ نفسه فى نحو الثلاثين من عمره أنه أوتى حظاً من المعرفة وأنه يستطيع أن يؤتى الناس مما فتح الله عليه . فخرج يوماً بالعشى تنازعه نفسه طلب الرياسة ، ويمم شطر المسجد وأوى إلى ركن بعيد عن حلقة الشيخ يؤلف لنفسه حلقة أخرى . فلم يكد يدخل حتى رأى أستاذه كواسطة العقد فى حلقته ، فهاجته الذكرى . ولم تطب نفسه أن يترك ذلك الأستاذ العظيم الذى قال عنه إبراهيم النخعى إذ سئل عمن خلف بعده للناس . إنه خلف حماداً للناس . فكيف يترك النعمان حماداً ؟

كان حماد آية فى الزهد والورع يفطر كل ليلة فى شهر رمضان خمسين إنساناً فإذا كانت ليلة الفطر كساهم ثوباً ثوباً . .

وانصرف الفتى كاسف البال منكسراً ولكنه كان منتصراً . إذ انتشل نفسه من غمرات الطموح ليعاود دراساته فى دأب وتعمق وحماسة زادته بسطة فى العلم وسعة فى الفهم . حتى إذا نعى إلى حماد بعض أهله بالبصرة عن مال لا وارث له دونه ، رحل إلى البصرة وأناب أبا حنيفة فى أن يجلس مكانه .

وأقبل الناس على الشيخ — الصغير — يستفتونه فى أشياء لم يحفظها عن الشيخ الكبير ، وحانت الفرصة وأخذ يجيب ويجيب ، واستن سنة جديدة أرادها لنفسه وأراد الله أن تكون للدنيا ، وللإسلام : تلك أنه دوّن إجاباته ليعرضها على أستاذه إثر عودته . فلما راجعها حماد أقر منها أربعين وأنكر عشرين ، وبدأ الفتى يستحب التدوين ، وبدأ فقه الجمهور الإسلامى يعرفه معه ، وآنس التلميذ من نفسه ضعفاً إذ منعه الحياء العلمى أن يعتد بأنه أصاب ضعفى ما أخطأ ، وتعاقب عليه الجديدان فى حلقة حماد ، وهو يأخذ نفسه بالاستبحار فى العلم وفى الدين ، واشتملت عليه عناية الله تتعهده تعهد من قدرت عليهم أن يحملوا أمانة الفكر . ودار الفلك دورات وانسلخت سنوات ثمان لم يكد يترك فيهن أستاذه يوماً ولا بعض يوم . بل إن كثيراً من الدروس كان يشغله بياض النهار وزلفاً من الليل .

* كان يسهر مع جماعة من أصحابه فى دار حماد يتدارسون ، وكان للشيخ ديك يصيح من أول الليل فكانت العلامة بين حماد وبين أصحابه أن يصيح الديك فإذا صاح قام حماد فينفرط عقد الجماعة . ويقول أبو حنيفة : « يا لك من ديك قبحك الله قطعت حديثنا ، إن شر الديكة ما صاح أول الليل » .

كان يجلس مع حماد ولكنه كان يفكر مع نفسه . وبلغ به استقلاله . ما بلغ بأستاذه جلاله ، أنه لم يكن يجد فى مخالفته له حرجاً . خرج معه مرة يشيع جنازة فسأل رجل حماداً : إنى على دابة سيور وقد غابت الشمس ولست على الوضوء . قال له : تيمم لكن الرجل سأل أبا حنيفة فقال : سر وانتظر غيبوبة الشفق ، فإذا خشيت ذلك فتيمم وصل ، وسار الرجل فصادفه الماء فتوضأ .

وهكذا لم يجز للرجل أن يتيمم ما دام يغلب على الظن وجود الماء ، وفى الوقت سعة ، طلباً للكمال بالطهارة الأصلية .

وهى أول فتوى خالف فيها أستاذه .

اكتملت دراسات الفتى المكتمل ، وبلغ نضجه العلمى ، واستوى فى سن الأربعين — سن الرسل — فأضحى يستطيع أن يؤدى رسالته وهيأت له السماء كل الظروف .

فى سنة ١٢٠ للهجرة صعدت روح حماد إلى بارئها واجتمع الناس إلى ابنه إسماعيل ، وكان أغلب علم إسماعيل فى التاريخ والأدب ، فلم يلق الناس عنده كبير غناء. فأخذ المجلس موسى بن كثير وكانوا يحتملونه وإن لم يكن فارهًا فى الفقه ، لأنه لقى المشايخ الكبار ، ثم خرج حاجًا فجلس الناس إلى أبى بكر النهشلى فأبى فسألوا أبا بردة فأبى ، وخلى بين المجلس وبين أبى حنيفة ، فوجدوا عنده ما لم يجدوا عند أحد منهم فى كل الأبواب نفاذًا وعلمًا بارعًا فلزموه وتركوا سواه .

وجاء إسماعيل بن حماد نفسه وإخوانه وجلسوا من النعمان مجلس النعمان معهم من قبل من حماد . ولم يزل الناس يختلفون إليه حتى تخرج على يده من تخرج من التلاميذ واستحكم أمره واحتاج الولاة إليه وذكره الخلفاء وجعل الأمر يزداد علوًّا ، وغدت حلقته أعظم حلقة بالمسجد وأوسعها فى الجواب وانصرفت وجوه الناس إليه وأكر الحكام والأشراف . فقوى ذلك بالعلم الواسع والجدة ، وأسعدته المقادير ، وكثر حساده .

وظلت فى نفسه ذكريات حماد يرددها مشيداً بنداه على الناس وجدواه عنده وتقواه لله حتى ليقول : « إنى لأدعو لحماد مع أبوى » . بل إنه ليخلد ذكراه فى نفسه وفى داره فيسمى ابنه باسم حماد ثم تخلده الدار بدورها فيسمى ابنه حماد ولده باسم إسماعيل كما كان لحماد ولد اسمه إسماعيل .

ذلك حماد أستاذه فى الفقه ، وأبوه فى الفكر ، وأولئك آباء حماد الفكريون :

كان حماد تلميذًا لعلية الأستاذين . جرى اسمه فى التاريخ على أنه راوية إبراهيم النخعى . وناهيك بإبراهيم من رجل عظيم قال عنه الشعبى عندما نعى إليه : « هلك الرجل .. إنه نشأ فى أهل بيت فقه فأخذ فقههم ، ثم جالسنا فأخذ صفو حديثنا إلى فقه أهل بيته فمن كان مثله . . » وقال : دفنتم أفقه الناس . قيل ومن الحسن (الحسن البصرى) ؟ قال : « أفقه من الحسن ومن أهل البصرة ومن أهل

الكوفة وأهل الحجاز» . فلقد كان فى الواقع حلقة الاتصال بين فقه الأقدمين وفقه المحدثين — أخذ عن خاله علقمة بن قيس الذى كان الصحابة يستفتونه والذى قال عنه ابن عباس إذ مات: « مات ربانى العلم» كما أخذ عن ابن أخى علقمة الأسود بن يزيد النخعى ، وهذان النخعيان أخذا عن أستاذ الكوفة الأكبر عبد الله بن مسعود ، سادس ستة أسلموا وأحد المهاجرين إلى الحبشة والمدينة ، وقرين أبى بكر وعثمان وعمر وعلى ، وصاحب النبى الذى قال فيه : « من سره أن يقرأ القرآن غضاً كما نزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد » والذى كان أخا فى الفكر والرأى لعمر بن الخطاب.

قال عنه أبو موسى الأشعرى: «لا تسألونى ما دام هذا الحبر فيكم». ولما أرسله عمر إلى أهل الكوفة بعث إليهم يقول : « إنى بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً وعبد الله ابن مسعود معلماً ووزيراً ، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بدر فاقتدوا برأيهما ، وأطيعوا واسمعوا قولهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى » وقدر لعمار ومساعديه ٦٠٠ درهم فى الشهر ! ولعبد الله بن مسعود ١٠٠ درهم لتعليمه الناس وقيامه على بيت المال .

وبنى الوزير المعلم بيته بجوار بيت الله . حيث قضى أبو حنيفة فيما بعد أحفل أيام حياته وجرى فى خلده وفى منهاجه منهج هذا المسلم السادس أو المعلم الأول للكوفة ، إذا أبيح لنا أن نستعير هذا التعبير العربى عن أرسطو . وبهذا تستبين صلة أبى حنيفة بالصحابة المقربين وبالإسلام عندما نشأ الإسلام .

سأل الرشيد عن أبى حنيفة تلميذه أبا يوسف فصوره له فى إحدى جوامع الكلم قال : « . . قال تعالى : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ، كان علمى به أنه شديد الذب عن المحارم شديد الورع أن ينطق فى دين الله تعالى بلا علم يحب أن يطاع الله تعالى ، ولا ينافس أهل الدنيا فيما بين أيديهم، طويل الصمت دائم الفكر مع علم واسع ، لم يكن مهذاراً ولا ثرثاراً . . إن سئل عن مسألة كان له علم بها أجاب ، وإلا قاس مستغنياً عن الناس ، لا يميل إلى طمع ، ولا يذكر الناس إلا بخير . . » قال الرشيد : هذه أخلاق الصالحين ، وأمر الكاتب فكتبها ثم أعطاها لابنه وقال : احفظها .

كانت قرة عينه فى الصلاة طول الليل يتعبد ويتهجد ويصلى ويبكى ويدعو ربه قائلا : « رب ارحمنى يوم يبعث عبادك ، وقنى عذابك ، واغفر ذنوبى يوم

يقوم الأشهاد » . ختم القرآن سبعة آلاف مرة ، وكان ربما ختم القرآن فى رمضان ستين ختمة ، ختمة فى بياض النهار وختمة فى سواد الليل ، ولطالما ذاعت فى الناس أحاديث تقواه ، فقيل كان يقرأ القرآن فى ركعة واحدة أو ركعتين فى الليل ، وقيل إنه كان يصلى العشاء والفجر بوضوء واحد أربعين عاماً .

سئل عنه جار له شيعى فقال : « لا يمنعنى خلافى إياه أن أقول فيه الحق ، إنه لجارى منذ أربعين سنة ما بينى وبينه إلا حائط ، ما كان يصبح كل ليلة إلا بسبع من القرآن بدعاء كثير و بكاء كثير » .

ولكثرة قيامه بالليل وتهجده سمى الوتد . . روى مسعر بن كدام أنه أتاه فى مسجده ستة أشهر ، فما رآه صلى الغداة إلا بوضوء العشاء الآخرة .

كان إذا أراد أن يصلى من الليل تزين حتى يسرح لحيته ، مؤثراً أن يسجد لله وهو فى زينته ، ولو كان مستخفياً فى الظلام .

وكان لديه ثوب قيمته ألف وخمسمائة درهم يلبسه فى بعض الأحايين إذ ينزع لباسه الذى يكون عليه والناس نيام ، ثم يتعطر ويقوم إلى الصلاة ، فقيل له إنما يلبس الناس هذا اللباس إذا لقوا سلطاناً أو اجتمعوا فى مجمع عظيم فقال : التزين لله عز وجل أولى من التزين للناس .

ولما ختم ولده حماد سورة الفاتحة احتفل به أعظم احتفال ، فأعطى المعلم خمسمائة درهم ، أو ألف درهم ، واستكثر المعلم هذا السخاء إذ هو لم يعلمه من الكتاب إلا فاتحة الكتاب فقال له : « لا تستحقر ما علمت ولدى . لو كان معنا أكثر من ذلك لدفعناه إليك تعظيماً للقرآن » .

• • •

كان جم الوفاء لحيرته وعشيرته يسهر الليل نشوان بذكر الله وفى جوار داره إسكاف يحيى الليل منتشياً بلذاذات الشراب ، يعمل طول النهار حتى إذا جن الليل حمل لحماً فطبخه أو سمكة فشواها ، فإذا دارت رأسه علا حسه ورن جرسه ، يشعر الشاعر :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر
كأنى لم أكن فيهم وسيطا ولم تك نسبتى فى آل عمرو
أجر فى المجامع كل يوم فيا لله مظلمتى وصبرى

وذات مساء فقد الجار المتعبد جاره المعربد وقيل له إن العسس اقتادوه إلى السجن منذ ليال ، فصلى الفجر من الغد ودعا بسواده وقلنسوته الطويلة فلبسهما وركب بغلته وقصد إلى دار الأمير — عيسى بن موسى — يسأله المغفرة للجار اللصق . فأكرم الأمير مثواه وأطلق سراح كل من أخذه الشرط من تلك الليلة إلى ذلك اليوم . وقفل الرجلان راجعين ، هو إلى داره والإسكاف إلى جواره . قال لصاحبه وهو يحاوره : يا فتى : هل أضعناك ؟ فأجاب قائلا : بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً .

كان ذلك الصنيع لفتة بارعة تاب بعدها الفتى عن شرابه ولزم الحلقة حتى صار فقيهاً من فقهاء الكوفة .

فلا تتساءل كيف جشم رجل الفقه نفسه تلك الرحلة فى طلب العفو عن سكير . فالجواب فى السؤال : أنه رجل الفقه الذى لا يتحرك فى قوالب من الجبس ، أو فى مقامع من حديد ، لأنه صاحب الفقه الحى والطبع الأريحى الذى لا يضيع جاره ، فهدى نفساً كانت ترتع فى الفساد . وحسبك هذه النهاية لتحتفل بها عن البداية .

وقديماً صنع مثله سعد بن أبى وقاص فاتح العراق فى صقع قريب من أصقاع العراق يوم القادسية ، يوم شرب أبو محجن الصحابى الخمر فحبسه سعد وجىء به ليقام عليه الحد . . فلما التقى الجمعان ناحت نفسه كنواح الحمائم :

كفى حزناً أن تطرد الخيل بالقنا وأترك مشدوداً علىّ وثاقيا

فقال لامرأة سعد أطلقينى ولك — والله — إن سلمنى الله أن أرجع حتى أضع رجلى فى القيد . فقبلت السيدة عهده وحلت قيده . فوثب على البلقاء ، فرس الأمير ، وأطلق لها العنان بين الصفوف فبهر الجيش ، وخلب لب القائد ، حتى خالوه ملكاً من الملائكة المسومين أنزله الله لنصرة دينه . فخلى سعد سبيله وآلى ألا يقيم عليه الحد من أجل بلاء بدت فيه التوبة الكاملة بإسلامه نفسه فى سبيل الله . .

وكانت لمسة مباركة تاب من بعدها أبو محجن عن الخمر فقال للأمير : « كنت أشربها إذ يقام على الحد وأطهر منها فأما إذ بهرجتنى — أهدرتنى بإسقاط الحد — فوالله لا أشربها أبداً » .

كان أبو حنيفة إذا جمع المال تسابقت كفاه فى تفريقه .. ذلك تلميذ يسد خلته ، وتلك امرأة ذات خصاصة ، وهذا فقيه فى أسوأ حال . إن مال أبى حنيفة

إن لم يكن لهؤلاء وأشباههم فلا كان المال ، وإذا أنفق أبو حنيفة على عياله نفقة فليتصدق بمثلها ، وإذا اكتسى ثوبًا جديداً فليكس بمثل ثمنه الشيوخ والعلماء .

أصابت رجلا من الأغنياء فادحة أثقلته فجعل يتجلد حتى عضه الجوع ومسه الضر وشكت له امرأته جوعها وجوع صغيرتها ، أن أجدب الفناء وصفر الإناء فمس كبده من ذلك كبد . وخرج على عزم السؤال . وقصد إلى مجلس أبي حنيفة حيث جلس مليًّا تقيمه الحاجة ويقعده الحياء . ثم انفض المجلس عن أهله وتفرقوا وخرج الرجل دون أن يبدى من أمره ما أخفى ، وعاد إلى داره . وكان أبو حنيفة قد قرأ فى وجهه أشياء تجرى دلائلها بين قسماته ، فاتبعه حتى دخل الرجل داره ، ولما جن الليل جعل أبو حنيفة فى كمه خمسة آلاف درهم ودق الباب وقال : « أيها الرجل وضعت عند بابك شيئاً هو لك » . ورجع مسرعاً لئلا يرى ذل الأخذ فى وجهه ، وأخذ الرجل الصرة وهو يأبى أن يحل عقدتها خشية أن تكون صدقة ذمى — فلقد كان الذميون يتألفون قلوب الناس فى تلك الأيام بالأعطيات — ولكن زوجته أهابت به « حل عقدتها لعل الله يحل عقدتنا » .. فلما حلها قرأ كلمة أبى حنيفة : « هذا المقدار جاء به أبو حنيفة إليك من وجه حلال فليفرغ بالك . . »

وحبس إبراهيم بن عيينة — أخو سفيان بن عيينة المحدث — على أكثر من أربعة آلاف درهم فهم أصحابه بأن يجمعوا له اكتتابًا . فلما صاروا إلى أبى حنيفة أمر برد ما أخذوه من الناس وقضى عن المدين دينه .

جاء رجل فقال إن على لفلان مائة درهم وأنا مضيق فسله يصبر على ، ويؤخرنى بها فكلم أبو حنيفة صاحب المال فقال صاحب المال : هى له أبرأته منها ، قال الذى عليه الدين ، لا حاجة لى فيها . قال أبو حنيفة : « ليست الحاجة لك ، وإنما الحاجة لى قضيت » .

تلك صدقات ونفحات فى المناسبات . لكن العطاء كان يجرى جريان الزمان فى كل الأيام ، إذ يأمر ولده حماداً بأن يشترى فى كل يوم بعشرة دراهم خبزاً يتصدق به على جيرانه ، وعلى كل من يختلف إلى بابه ، وكان يجرى على الكثير من أصحابه جراية فى كل شهر عدا ما كان يواسيهم به فى عامة الأيام .

وتناهى به التجرد عن المادة ، فكان يخرج عن كل ماله للمعوزين . لا يخاف

عيلة،ولا يستبقى لداره ولا لأهله إلا قدر نفقتهم، والباقى كله طعام البائس والمعتر .. وفى ذلك يقول : «ما ملكت أكثر من أربعة آلاف درهم منذ أكثر من أربعين سنة إلا أخرجته وإنما أمسكها لقول على رضى الله عنه ، أربعة آلاف فادونها نفقة ، ولولا أنى أخاف أن ألجأ إلى هؤلاء ما تركت منها درهماً واحداً » .

وسترى كيف كان ثراؤه عريضاً لترى كيف كان سخاؤه عجيباً ، بل لترى كيف كان إدباره عن الدنيا مصدراً للقوة فى ذاته وأثراً لها فى نفس الوقت ، كالقوى تولد القوى فتتولد منها. وسترى كيف أخضعت له هذه القوة العالم فى حياته وبعد مماته فبلغ فى الدنيا وفى الآخرة ما شاء بل ما شاءت له السماء .

ثم إنك لترى الأريحية كلها إذ يهدى إليه : أهدى إليه منديل قيمته ثلاثة دراهم فعوض المهدى قطعة خز قيمتها خمسون درهماً . وجاءته هدية من الفاكهة فبعث إلى المهدى متاعاً مرتفعاً كثير القيمة .

وأهدى إليه يوماً ألف نعل ففرقها على إخوانه، ورؤى بعد ذلك بيومين يشترى لولده نعلا . . . فلما سئل فى ذلك قال : «إن مذهبى فى الهدايا تقويمها بالغة ما بلغت . والمكافأة بمثلها أو مثل ضعفيها، وتفريق الهدية بين إخوانى . لما قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا أهدى إلى الرجل فجلساؤه شركاؤه ، وإخوانى جلسائى فلا أحب أن أنفرد دونهم بل أرى أن أجمل نصيبى لهم» . . . وأرى قبول الهدية كما قال الله تعالى:(خُذ العَفْو وأمُر بالْعُرْف) ، ولما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقبل الهدية ويجيب الدعوة . وأرى المكافأة بأحسن منها لقوله تعالى : (وإذا حُيِّيتم بتحيَّة فَحيّوا بأحْسَن منْها)، ولقوله تعالى : (ولا تَنْسَوُا الفَضْل بيْنكم) .

وأهدى إليه مرة فكافأ المهدى بأضعاف ما أهدى إليه . قال الرجل : لو علمت أنك تفعل ذلك ما أهديت إليك . قال : «لا تقل هذا فإن الفضل للسابق ، ألم تسمع إلى ما حدثنى به الهيثم عن أبى صالح يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم قال: من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فأثنوا عليه . . .» .

بلى . . فليسعد النطق إن لم تسعد الحال . . !

رأى على أحد جلسائه سنجاباً فلما هم بالخروج قال له : ناولنى هذا السنجاب فتناوله وقال : ما أطرفه . وطلب من صاحبه بيعه فسر صاحب السنجاب أن أعجب الأستاذ بالسنجاب . لكن الأستاذ سأله عن الثمن فأجاب : سبحان الله أبيعه لك ! هو لك هبة منى وتذكرة . قال الأستاذ إن بعته منى بقيمته وإلا فلا حاجة لى فى الهبة ، فإن بعته منى بقيمته كان أعجب إلى وأفعل. ذلك لأنى محتاج إليه . وأبى الرجل وأبى الأستاذ . فقومه بعض الحضور واشتراه أبو حنيفة .

وهو أرحب الناس صدراً بالأذى والسفاهة . كان يدرك أن رسالته حرب على الجهالة والحسد والتعصب . وأن السبيل إلى الظفر بحملة هذه الأسلحة هى تجريدهم منها ، بالحلم وبالصبر . كان فى المسجد فقام رجل فى ناحية فجعل يسبه فما قطع حديثه ، وقام إلى داره ، فتبعه الرجل يشتم ويصيح حتى إذا بلغ داره قام عند الباب واستقبل الرجل بوجهه قائلا : « هذه دارى أريد الدخول فإن كنت تستتم باقى كلامك فأتمه حتى لا يبقى شىء مما عندك حتى لا تخاف الفوت » فاستحى الرجل ، وقال : اجعلنى فى حل . قال : أنت فى حل .

وقديماً كان فتى مهين يسلق بركليس بألسنة حداد على ملأ من الناس فظل الرجل العظيم فى عمله لا يلقى إليه بالا حتى أوت الشمس إلى الغروب فسار إلى منزله ، والفتى على أثره يردد سبابه ، فلما دخل بركليس بعث خادماً يحمل المصباح لينير للفتى طريق عودته إلى داره .

وهذه أمه يبجلها ويدللها ، كانت كبعض الأمهات وبعض العشيرة تكاد تعشى عينها فى سنا الكوكب الذى يغمر الدنيا ضياؤه ! لا تثق بالفتيا إلا إذا جاءتها واردة من الخارج . . !

حلفت يميناً واستفتته فأفتاها ، فلم ترض عما أفتى فتاها ، وأبت إلا أن يفتيها زرعة القاص « الواعظ » . فلم يضق ذرعاً ، وحملها إلى دار زرعة ، وهنالك قال لها صاحب الدار : أأفتيك ومعك فقيه الكوفة .. ! ولو انكشف أمامه لوح المستقبل لقال فقيه الدنيا .

وأمر أبو حنيفة لزرعة أفتها بكذا ، فأفتاها .

بل كان يحملها إلى دار عمر بن ذر على ما كان بين الدارين من بعد الشقة « ثلاثة أميال » ليصليا التراويح خلفه وليستمعوا إلى وعظ هذا الزاهد الجليل . وليدعوا الله كما يدعوه «أتعذبنا يارب وفى جوفنا التوحيد.!الا أراك تفعل» وهو دعاء يوائم قاعدة أبى حنيفة فى الإيمان كما سترى بعد . فأى رقة تفيض من هذا القلب الكبير .! وأى دار كتلك الدار تشيع فى أجوائها الزهادة والتبتل والإيمان . وأى ذوق كذلك الذى يتلمس على هذا النحو رضا السيدة التى حملته وأرضعته وقدمته هدية فاخرة للوجود .

ولما أوجعته السياط وهو فى قمة المجد ، معنى بالنكال الذى يصبه عليه ملوك الأرض ، لم يكد يفتح فاه بالكلام إلى جاره إلا ليقول عن أمه : « والله ما أوجعتنى السياط قدر ما آلمتنى دموعها » وقالت له أمه : ما خير علم يضيعك هذا الضياع .

قال : يا أماه إنهم يريدوننى على الدنيا ، وإننى أريد الآخرة ، وإننى أختار عذابهم على عذاب الله .

قال نابغة الأدب الدينى فى فرنسا « بوسويه » فى رثاء عبقرى الفن الحربى « كونديه » : « ألا بعداً لأولئك الأبطال الذين لا إنسانية فيهم ! إنهم قد يستحقون احترامنا وإعجابنا ككل ما هو خارق للطبيعة لكن قلوبنا ليست معهم . . . » .

* * *

فى أى سلك من الرجال يسلك هذا السيد الرفيع الطراز ؟ لو كان فى الإسلام أرستقراطيات وطبقات لكان مكانه فى الذروة العليا من الطبقة العليا خلقاً وخُلقًا ، سمتًا ونطقًا . صلة بالناس وصلة بالله .

كل أولئك ثم هذا نسبه العلمى الذى يسمو به إلى السابقين من أصحاب النبى . ففيم إذن أجهد الأشياع والأتباع أنفسهم ليخلقوا له نسبًا غير أنساب الموالى ، ويزيفوا له من مسميات الغرور أنه سليل الملوك ، وأن اسمه أو معناه ورد فى التوراة ، وأن النبى عليه الصلاة والسلام قد بشر بقدومه ؟

إنما يتفاضل الناس بالأحلام لا بالأرحام ، والمسلمون سواسية كأسنان المشط وكالبنيان يشد بعضه بعضًا ، وهم سواء فى الحج وفى الصلاة وفى الزكاة ، وفى الجنايات ، عين بعين وسن بسن ، والجروح قصاص .

سوى النبى بين نفسه وبين مولاه زيد ، وأمر أسامة بن زيد على الجيش وهو

حدث، وفى الجيش أبو بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص وغيرهم . فلما بويع لأبى بكر قبل مسير الجيش كلم أبو بكر خليفة اليوم أسامة فى عمر خليفة الغد، ليأذن له فى التخلف ففعل. وظل عمر يناديه كلما لقيه : السلام عليك أيها الأمير. ويقول: « إنى لا أدعوك إلا به لأن النبى صلى الله عليه وسلم مات وأنت علىّ أمير» .

ولما شرع عمر يستخلف قال : لو كان سالم مولى حذيفة حيًّا لوليته .

فى تلك الأمة التى لا تعرف شريفًا ومشروفًا نهض الموالى بأفدح الأعباء فى الحرب والسياسة وفى العلم والفقه .

فى عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم كان عبد الله بن عباس يذكر ويذكر معه مولاه عكرمة، وظل عكرمة رقيقًا حتى مات ابن عباس فباعه ولده علىّ بأربعة آلاف دينار . فقال لعلى : « بعت علم أبيك بأربعة آلاف دينار » ! فاستقال علىّ من بيعه وأعتقه !

وكان عبد الله بن عمر كثيراً ما يذكر ومعه مولاه نافع ،وأنس بن مالك لا يكاد يذكر إلا ومعه مولاه ابن سيرين ، وأبو هريرة لا يكاد يذكر إلا ومعه مولاه عبد الرحمن بن هرمز !

بل كانت دولة الفقه للموالى فى بعض الأمصار ،كالبصرة حيث كان على رأسهم الحسن البصرى ، وفى مكة كان مجاهد بن جبر ، وعطاء بن أبى رباح، وطاووس بن كيسان وكثيرون من الموالى .

وفى سوق الفخار هذه علا صوت السودان، فتولى الفتيا بمصر يزيد بن أبى حبيب بأمر عمر بن عبد العزيز ، وكان يزيد مولى للأزد أبوه من دنقلة ، وهو الذى تعلم عليه إمام مصر العظيم الليث بن سعد .

ثم من هم الموالى؟ الموالى هم القوم المنتسبون إلى بيوت العرب بعقد ولاء ، ومنهم الأرقاء ومنهم غير الأرقاء ، وكانوا فى الأغلب الأعم من أهل البلاد المفتوحة كمصر وفارس وبلاد الروم . وكان العرب يستطيعون أن يتملكوهم بحق الفتح ، لكنهم تركوهم أحراراً ، وجرت كلمة الموالى فى إطلاقها على أن تشمل من ليسوا عربًا من أهل هذه البلدان ، لأنهم كانوا يسلمون على أيدى المسلمين ، فمن أسلم على يد

مسلم كان مولاه ، وكثيرون منهم أسروا أطفالا رباهم المسلمون وعلموهم وغدوا مواليهم . ولم يك بدعاً أن يظهر الفقه والعلم على يد أهل هذه البلدان المفتوحة : فيقال إن الفقه بعد موت العبادلة الأربعة — أبناء عباس وعمر وعمرو والزبير — قد انتقل إلى الموالى ، إذ كان الموالى أهل حضارة رفيعة لم يمسخها الغزو ، لأنه لم يك غزواً بربرياً ، وإنما كان غزواً فكرياً ، فتح الله به على المسلمين ، وعلى أهل البلدان المفتوحة ، فأنزل رحمته عليهم فى شريعته إليهم . وانداحت مع الموجة الفاتحة موجة من الإيمان غدت من بعد تياراً من التفتح الذهنى أخرج للأمة ما أخرجت من الآيات : وكان الفقه أول ما أخرجت لأنه فى الواقع هو الدين نفسه ، أو القدر الأوفى من الدين . وتلاقى العاملان ، وتبادل المتبادلان ، فمنح العرب الشعوب المغزوة دينهم قيماً ، ولغتهم فصحى ، وقدم الموالى من جانبهم أسباب حضارات فاخرة ، وأصول تفكير عميقة . واشتاع الشريكان أبد الدهر ، فازدوجا ثم اندمجا . وتضافرت القوى الإسلامية على الإنتاج تضافر القوى عند التلقيح لتخرج أنواعاً قوية جديدة الطراز .

• • •

وإذا كان ثمة وقائع تشير إلى النفرة بين العرب والموالى فقد صارت حديثاً فى التاريخ بعد أن توج الازدواج بالاندماج .

سأل هشام بن عبد الملك جليسه فى فاتحة القرن الثانى : هل لك علم بعلماء الأمصار ؟.

قال : بلى يا أمير المؤمنين .

قال : فمن فقيه أهل المدينة ؟ قال : « نافع مولى ابن عمر » .

قال : فمن فقيه أهل مكة ؟ قال : « عطاء بن أبى رباح » .

قال : مولى أم عربى : قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل اليمن ؟ قال : « طاووس بن كيسان » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل اليمامة ؟ قال : « يحيى بن أبى كثير » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل الشام ؟ قال : « مكحول » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل الجزيرة ؟ قال : « ميمون بن مهران » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل خراسان ؟ قال : « الضحاك بن مزاحم » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل البصرة ؟ قال : « الحسن وابن سيرين » .

قال : مولیان أم عربيان ؟ قال : مولیان !

قال : فمن فقيه أهل الكوفة ؟ قال : « إبراهيم النخعى » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : لا بل عربى !

قال : كادت نفسى تخرج ولا تقول واحد عربى !

قال ذلك هشام وقد طبع على قلبه التعصب لأعراقه ، لكن الخليفة الذى كان فى طليعة من حملوا ميزان المعدلة فى الإسلام قال غيره . . فلما سمع عمر بن عبد العزيز أن بعض الناس أنفوا أن تكون الفتيا للموالى صاح فيهم : (ما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صعداً وأنتم لا تسمون ؟) .

والذى قاله عمر قاله صاحب الشريعة من قبل لأهله : « لا يجيئنى الناس بالأعمال وتجيئونى بالأنساب (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) » .

وقف رجلان مولى وعربى على مجلس لبنى العنبر . والعربى على حمار والمولى على ناقة ، وكان المولى يقرأ ويكتب ، والعربى لا يقرأ ولا يكتب . فلما سلما على القوم قاموا فسلموا على المولى ثم عادوا إلى العربى ، فقبض يده عنهم وقال : لا ولا كرامة ! بدأتم بالصغير قبل الكبير ، وبالمولى قبل العربى فاسكتوا ، فانبرى واحد منهم فقال له : بدأنا بالكاتب قبل الأمى وبالمهاجر قبل الأعرابى وبراكب الراحلة قبل راكب الحمار .

هذان روحا هشام وعمر ، وهذا الجواب الأخير هو النظر الذى ينظر به الإسلام إلى عنصرى كيانه قد أنطق الله به فتى بنى العنبر .

كان الموالى هم الذين حملت مناكبهم عمد الدولة العباسية حتى استقرت بها الأسباب . والأولى ترجموا ، وألفوا ، ولقحوا الحضارة العربية بلقاح الفرس ، واليونان ، والنبطيين والكلدانيين ، والآشوريين ، والبابليين ، والروم ، والهنود ، وغيرهم ، فصيروا الحضارة الجديدة حضارة إسلامية جامعة .

وفى العهد العباسى كان مفخرة للرجل أن يكون من الموالى . كان عمارة بن حمزة بعيد الصوت فى بلاط المهدى ، فدخل عليه يومًا فأعظمه فقال رجال من القرشيين : من هذا الذى أعظمته الإعظام كله . قال عمارة بن حمزة مولاى . فسمعها عمارة فرجع يقول : يا أمير المؤمنين جعلتنى كبعض خبازيك وفراشيك ، أفلا قلت عمارة بن حمزة بن ميمون مولى عبد الله بن عباس ليعرف الناس مكانى ؟

وهؤلاء طائفة من الغزاة والملوك : كافور — الأسود الزنجى كما يقول المتنبى — وأبو المسك — كما يناديه أيضًا — كان (الملك الأستاذ) كما سماه المتنبى كذلك ، وطارق بن زياد مولى موسى بن نصير ، وموسى نفسه مولى عبد العزيز بن مروان : هذان المولیان اللذان يقصر دون مجدهما كل مجد السادة ، هما اللذان منحا الإنسانية حضارة الأندلس فوصلا الشرق بالغرب وجمعا طرفى التاريخ قديمه وحديثه . ولو طال بنا السرد لبرزت أسماء الموالى على أنها زين أعلام التاريخ الإسلامى وحروف هجاء فى آيات فخاره .

بل هؤلاء بنو تيم الله بن ثعلبة موالى أبى حنيفة وأبيه ، لقد صار لهم شأن بأنهم موالى ذلك الذى سعدت به الدنيا فوضعهم فى التاريخ حيث يوضع .

فلا تسل إذن عن ثابت والد النعمان ولا عن جده زوطى فكلاهما فخار ولدهما إذ يقال إنهما مولیان ، وفتاهما فخار هذه الأمة الإسلامية على الزمان ، بل قل لثابت ولزوطى ولكل من حاول أن يغض من نسبهما مقاله المتنبى لجدته :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد فإن أباك الضخم كونك لى أما

* * *

إن هذه الشريعة لتباهى بطائفة من أنبغ علمائها بزغت نجومهم أو وفدت أصولهم من خارج بلاد العرب . ولئن ساغ ذلك النبوغ فى السياسة أو فى القيادة أو فى الفن ، فإنه فى الفقه ، وللوهلة الأولى ، يستوقف النظر ، وبخاصة فى فجر الإسلام . ففى الفقه نصوص القرآن والأحاديث والسنن . فكيف تتمثل النفوس الوافدة من بعيد خصائص الأمة العربية فى سهولة ويسر وسرعة فتحفظ كتابها وتدرك أسرار لغتها حتى تبز الخلص من بنيها !

هؤلاء الموالى الذين أسلفنا المقالة فيهم . وهذا الليث بن سعد كان أهل بيته

يقولون نحن من الفرس من أصبهان ، والطبرى من آمل بطبرستان ، وابن جريج رومى المنبت ، وربيعة الرأى فارسى الأصل ، والشعبى علامة التابعين كانت أمه من سبى جلولاء ، والحسن البصرى كان أبوه من سبى ميسان ، ولو عمدنا إلى الحصر لشمل الكثرة الغالبة من أئمة الفقه والعلم ، ولكنا نقتصر على بعض الأمثال . بل ان اللغة نفسها قد سعدت بالموالى مثلما سعدت بأربابها ، هذا عبد الحميد بن يحيى الذى قيل عنه : « ابتدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد » كان من الموالى ، وهذا سيبويه يضع قواعد النحو ! والكسائى وارث علماء البصرة ، وتلميذه الفراء كان ديلميًّا كمهيار ، وابن مسكويه وابن سينا والفارابى كانوا موالى أجمعين . ومن قبلهم كان ابن المقفع سيد النقلة إلى العربية . . وهو أول من أشار بتجميع الفقه وما يزال تجميع القوانين الشرعية إلى اليوم أمنية رجل القانون .

نزل الوحى فى شبه الجزيرة كالغيث ، وسال من قممها إلى الوديان الإسلامية طرًّا حيث قر قراره ، واحتمل السيل فى فيضانه تلك المدنية الرابية لا تقفها الحدود ولا السدود ، فشرقت فغمرت بطاح آسيا ، وغربت لتصب فى المحيط الأطلسى . بدأ العراق نهضة اللغة بالبصرة واكتملت فيه نهضة الفقه بالكوفة ، ثم تلقى اللواء فى مصر جامع عمرو ، والأزهر الأغر ، فأبقى الجامع العظيم على حضارة الإسلام ألف عام ليؤديها إلينا فى القرن الرابع عشر وإلى كل القرون .

إن هذا الدين متين كلما أوغل الداخل فيه اشتملته فيوض النور ، فخلبت لبه قواعد المجتمع ، ونظم الأسرة والأهلية والأخلاق العامة والزكاة ، والصلة اليومية المتعددة بالله باسم الصلاة ، والمؤتمر السنوى العام إلى جوار بيت الله الحرام ، والمؤتمر الأسبوعى الخاص فى يوم الجمعة فى كل مكان ، وحرمات البيوت وحقوق المعاملات ، والتعاون ، وأخلاق السلم والحرب ومساواة المرأة بالرجل ومساواة المسلم بالمسلم ، ذلك وما إليه من خصائص الإسلام يأسر من فؤاد الباحث بقدر إيمانه ، وكلما تغلغل فيه اختلطت كفاياته بأصول الدين فاستحالت عجبًا .

بهذا تمثلت الشريعة الإسلامية الملل والنحل الشتى فصارت أمة واحدة هى الإسلام ، لا فضل فيها لعربى على أعجمى ، وإنما الفضل بالتقوى .

ولئن كانت النعرة العربية قد استبدت بهشام بن عبد الملك ، فإنما هى جاهلية ذمها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم حمية الجاهلية ، وتعاظمها بآبائها ، فالناس رجلان برتقى كريم على الله ، وفاسق شقى هين على الله ، والناس بنو آدم .. » ولقد فات أمير المؤمنين أن المؤمنين موال وعرب ، وأن الإسلام للعالم كله لا لجزيرة العرب وحدها . وأن نبوغ النوابغ من أفنان الدولة إنما هو أفخر التحايا للدين الجديد فى مطلع سعده وفاتحة عهده ، أن أدبهم فأحسن تأديبهم .

وفاته أن جزيرة العرب قد سبقت فاحتفظت بكل شىء ، ولم تكد تبقى للناس من دونها شيئًا .

فاته أنها أخرجت محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، وحسبها هو . . . ولو أنه ليس لها وإنما هو للدنيا جميعًا . .

لقد اعتز الإسلام بأهل البلاد المفتوحة ، وتألقت فى سماواته حضارة دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة والقسطنطينية وأمثالها ، لكن مركز الثقل كان دائمًا فى وسط الجزيرة . وحيثما كان المسلمون واوا وجوههم شطره ، مبتهلين إلى صاحب البيت العتيق بمكة ، مصلين على صاحب القبر الشريف بالمدينة .